١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ..... وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ
وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ
مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ
فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأنعام: ٩٩)

هذا النص القرآنى المعجز جاء فى بداية الثلث الأخير من سورة الأنعام، وهى سورة مكية، ومن طوال سور القرآن الكريم إذ يبلغ عدد آياتها خمسًا وستين ومائة بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لتكرار الإشارة فيها إلى الأنعام، ومن خصائص هذه السورة المباركة أنها نزلت دفعة واحدة.

ويدور المحور الرئيسى للسورة حول العقائد والتشريعات الإسلامية، وقصص عدد من الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله ـ تعالى ـ من قبل بعثة خاتمهم أجمعين سيدنا محمد ﷺ.

عرض موجز لسورة الأنعام

* استهلت السورة الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وهى حقيقة أريد بها دفع كل الأباطيل التى روجها الكافرون عبر التاريخ ـ ولا يزالون ـ فى محاولة يائسة لنفى الخلق، والتنكر للخالق ـ سبحانه وتعالى ـ واستهلال سورة الأنعام بهذه الحقيقة الكونية الثابتة دليل على أهميتها فى استقامة العقيدة؛ ولذا تكرر التأكيد عليها فى ثنايا القرآن الكريم لمرات عديدة.

* ويلى الإخبار بهذه الحقيقة أمر آخر خطير تقرره هذه السورة المباركة بالنص التالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

وفى ذلك تسجيل لثانى أكبر الحقائق الكونية، ألا وهى حقيقة خلق الإنسان من طين، وحتمية موته، وتحديد اللحظة التى يغادر فيها كل مخلوق هذه الحياة الدنيا،

وتأكيد حتمية الآخرة، التى لايعلم وقتها إلا الله، تعالى. وفى ذلك من التأكيد على حقيقة الألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة للخالق العظيم ما جزمت به الآية الثالثة من هذه السورة المباركة والتى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣].

* ثم تسرد الآيات بعد ذلك إعراض الكافرين عن آيات الله، وتكذيبهم بالحق لما جاءهم، وتعرض تهديد الله ـ تعالى ـ لهم من عواقب ذلك، وتذكيرهم بأمم من قبلهم، مكن الله لهم فى الأرض ثم أهلكهم بذنوبهم، وهو تحذير لهم ولغيرهم من الأمم والأفراد إلى قيام الساعة، وتأكيد أن التمكين فى الأرض، وبسط الرزق فيها ليسا ـ بالضرورة ـ دليل رضى من الله سبحانه وتعالى، بل قد يكون ذلك من باب الاستدراج لكشف معادن الناس وإظهار حقيقة نواياهم ودخائل نفوسهم.

* وتعرض الآيات لحوار بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يكشف موقف المراوغة والتكذيب والعنت منهم، وثبات الإيمان الراسخ على اليقين الذى يثبت به الله ـ سبحانه وتعالى ـ خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، فيقول له:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ [الأنعام: ١٤ ـ ١٦].

وتضيف السورة الكريمة على لسانه ﷺ أمرا من الله ـ تعالى ـ إليه تقول له فيه:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

* ويستمر الإخبار فى سورة الأنعام بأحداث وقعت فى غيب الماضى البعيد تأكيداً على صدق هذا الكتاب العزيز، وعلى صدق الرسول الخاتم الذى تلقاه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. ومن ضمن تلك الأخبار الغيبية جاء الحديث عن ثمانية عشر من أنبياء الله

ورسله (على نبينا وعليهم جميعًا من الله السلام)، تأكيدًا على وحدة رسالة السماء، وعلى الأخوة بين الأنبياء، وعلى حاجة الإنسان دومًا إلى الدين الصحيح القائم على التوحيد الخالص لله (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولاصاحبة ولا ولد)، وإلى نماذج ممن تربوا على هذه الهداية الربانية الخالصة (الإسلام) يُقْتَدَى بهم وسط فتن الدنيا وصعوباتها لأن الشرك بالله ظلم كبير للنفس، يهدد سلامة الفرد والمجتمع والبشرية كلها. ومن هنا كانت ضرورة كشف زيفه - أى زيف الشرك بالله - بالحجة المنطقية والبرهان الواضح، وضرورة عرض ذلك من خلال القرآن - وهو الوحى السماوى الوحيد المحفوظ بين أيدى الناس اليوم بنفس اللغة التى أوحى بها، (اللغة العربية) محفوظا بحفظ الله كلمة كلمة وحرفًا حرفًا على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فى الوقت الذى تعرضت كل صور الوحى السابقة للضياع التام، وما بقى منها من ذكريات نقلت شفاهًا عبر عدة قرون تعرض للنقل إلى لغات غير لغة الوحى مع ضياع الأصول، وتعرض خلال ذلك النقل إلى قدر من التحريف الذى أخرجها عن إطارها الربانى، وجعلها عاجزة عجزًا كاملاً عن هداية أصحابها، وأوقعهم فى أوحال الشرك أو الكفر والضلال أو التشكك والضياع.

* هذا، وقد بلغت الآيات التى تضمنت الإخبار بأحداث الغيب البعيد فى سورة الأنعام خمسا وعشرين آية، والقضايا التى تحدثت عنها تلك الآيات كانت قد وقعت بالفعل، ولكنها اعتبرت من الغيوب لأن العرب فى زمن البعثة المحمدية لم يكونوا يعرفونها لتقادم العهد بها خاصة أنهم لم يكونوا أمة تدوين؛ وورود ذكر تلك الأحداث التاريخية فى القرآن الكريم بهذه الدقة البالغة التى بدأت البحوث الأثرية فى إثبات العديد منها، مما يشهد لكتاب الله بالإعجاز التاريخى.

* أما الغيوب المستقبلية التى لم تقع بعد، أو التى لم تكن قد وقعت إلى نزول القرآن الكريم بها فتدخل فى مجال الإعجاز التنبؤى لكتاب الله. وبعض هذه المعجزات من الغيوب المطلقة التى لا سبيل للإنسان فى الوصول إليها إلا عن طريق وحى السماء. والهدف من إيرادها فى كتاب الله هو تحذير الناس وتبشيرهم بين يدى الساعة حتى لا يفاجأوا بها دون استعداد لها.

وقد جاء الحديث عن الغيوب المستقبلية فى سورة الأنعام فى ثلاث وأربعين آية نختار منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وهاتان الآيتان الكريمتان قد تحقق ما جاء فيهما ولا يزال يتحقق إلى يومنا هذا. والآيتان تصفان الكفار والمشركين وقت تنزل القرآن الكريم، إلا أن الحكم فيهما قد تحقق دوما منذ ذلك التاريخ إلى يومنا الراهن وسوف يظل يتحقق حتى قيام الساعة.

* ومن إخبار الآيات فى سورة الأنعام عن الغيوب المستقبلية وصفها لمشهد احتضار الكافرين وفيه يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّع بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام ٩٣ ، ٩٤].

* كذلك جاءت الإشارة إلى النفخ فى الصور وهو حدث غيبى مستقبلى خطير يحدد الفاصل بين الدنيا والآخرة، وفيه يقول ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

* وجاء الإخبار كذلك عن الحشر فى أكثر من آية، نختار منها قوله ـ تعالى ـ:

١ ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٧٣].

٢ ـ ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٣ ـ ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ [الأنعام: ٥١].

٤ ـ ﴿ وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون ﴾ [الأنعام: ٧٢].

٥ ـ ﴿ ويوم يحشرهم جميعا.... ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

* وكذلك جاء الإخبار عن الوعد والوعيد في إحدى عشرة آية نختار منها قوله ـ تعالى ـ:

﴿ والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ [الأنعام: ٤٩].

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿ لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ﴾ [الأنعام: ٦٧].

* وجاء ذكر يوم القيامة في أربعة عشر موضعًا، نختار منها قول ـ ربنا تبارك وتعالى ـ: ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ [الأنعام: ١٢].

* وجاء ذكر مصائر المكلفين من الخلق (الإنس والجن) وأحوالهم في الآخرة في اثنتي عشرة آية من آيات سورة الأنعام، نختار منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (٢٧) بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨]

* وكان الهدف المقصود من الإخبار بغيب الماضي البعيد، وبالغيب المستقبلي الأبعد هو تفصيل قضية العقيدة الإسلامية القائمة على ألوهية الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وتوحيده التوحيد المطلق فوق جميع خلقه، وتنزيهه عن كل وصف لا يليق بجلاله ـ من مثل الشبيه أو الشريك، أو المنازع، أو الصاحبة، أو الولد ـ والعقيدة الإسلامية قائمة كذلك على عبودية المخلوقين جميعهم لله، وعلى رفض كل من كفر الكافرين وشرك المشركين وتشكك المتشككين وتفنيد مزاعمهم، والثبات على الدين الصحيح الذي لا يرتضي ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من عباده دينًا سواه ألا وهو

الإسلام العظيم الذى أنزله الله تعالى على فترة من الرسل، وأتمه وأكمله فى بعثة النبى الخاتم والرسول الخاتم ﷺ ولذلك تعهد بحفظ رسالته الخاتمة إلى يوم الدين.

* وبالإضافة إلى ذلك تناولت الآيات فى سورة الأنعام أخباراً عن رسول الله ﷺ، وعن الذين آمنوا به وبرسالته، كما تحدثت عن كل من المشركين وزعمائهم، وعن مواقف أهل الكتاب من الرسالة الخاتمة فى زمن الوحى وإلى قيام الساعة.

وجاء ذكر رسول الله ﷺ وما جاء به من حق فى أكثر من ستين آية نختار منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧-٥٨].

* كذلك جاءت الإشارة إلى كل من القرآن الكريم ومكة المكرمة والمؤمنين فى خمس آيات من سورة الأنعام، نختار منها قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

* وبالمقابل جاءت الإشارة إلى المشركين وإلى معتقداتهم الفاسدة، وطرائق تفكيرهم الملتوية فى العديد من الآيات نختار منها قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

* وجاءت الإشارة إلى مكر أكابر المجرمين من أجل أن يتمكن المؤمنون من أخذ الحذر منهم وذلك فى آيتين كريمتين يقول فيهما ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣، ١٢٤].

وفى هذه السورة المباركة جاء الخطاب إلى أهل الكتاب واضحًا بينًا قاطعًا بحكم الله فيهم وذلك فى خمس آيات كريمات نختار منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩، ٢١].

وقوله ـ عز من قائل ـ:

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥].

* وقرب ختامها أكدت سورة الأنعام ضرورة تأسيس الأحكام على العلم، لا على الظن والتخمين، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ مخاطبا الكفار والمشركين فى جزيرة العرب وفى كل مكان وزمان:

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿ ... وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

* ذكر الطبرى ـ رحمه الله ـ ما مختصره: ﴿ ... ﴿ قِنْوَانٌ ﴾: جمع قنو وهى: العذوق، ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ متهدلة قصار قريبة من الأرض. ﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾: ما يتشابه ورقه، ويختلف ثمره وطعمه، ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ نضجه وانتهاؤه.

* وذكر ابن كثير ـ عليه رحمة الله ـ ما مختصره: «﴿ومن النخل من طلعها قنوانٌ﴾ أي جمع قنو وهي عذوق الرطب، ﴿دانيةٌ﴾ أي قريبة من المتناول، كما قال ابن عباس ﴿قنوانٌ دانيةٌ﴾: يعني بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض (رواه ابن جرير).

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وجنات من أعناب﴾ أي ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا..، وقوله تعالى: ﴿والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه﴾، قال قتادة وغيره: متشابه في الورق والشكل قريب بعضه من بعض، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً، ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ أي نضجه، ولهذا قال هاهنا: ﴿إن في ذلكم﴾ أيها الناس ﴿لآيات﴾ أي دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي يصدقون به ويتبعون رسله».

* وجاء في تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره: «﴿ومن النخل﴾ خبر، ويبدل منه: ﴿من طلعها﴾ أول ما يخرج منها، والمبتدأ ﴿قنوانٌ﴾ عراجين ﴿دانيةٌ﴾ قريب بعضها من بعض ﴿و﴾ أخرجنا به ﴿جنات﴾ بساتين ﴿من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً﴾ ورقهما، حال ﴿وغير متشابه﴾ ثمرهما ﴿انظروا﴾ يا مخاطبين نظر اعتبار ﴿إلى ثمره﴾ بفتح الثاء والميم وبضمهما، وهو جمع ثمرة.. ﴿إذا أثمر﴾ أول ما يبدو كيف هو ﴿و﴾ إلى ﴿ينعه﴾ نضجه إذا أدرك كيف يعود ﴿إن في ذلكم لآيات﴾ دلالات على قدرته ـ تعالى ـ على البعث وغيره ﴿لقوم يؤمنون﴾ خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها في الإيمان بخلاف الكافرين».

* وذكر صاحب الظلال ـ رحمه الله تعالى برحمته الواسعة ـ ما مختصره: «﴿من النخل من طلعها قنوان دانية﴾ وقنوان جمع قنو وهو الفرع الصغير، وفي النخلة هو العذق الذي يحمل الثمر، ولفظة ﴿قنوانٌ﴾ ووصفها ﴿دانيةٌ﴾ يشتركان في إلقاء ظل لطيف أليف. وظل المشهد كله ظل وديع حبيب.. ﴿جنات من أعناب﴾.. و﴿والزيتون والرمان﴾. هذا النبات كله بفصائله وسلالاته ﴿مشتبهاً وغير متشابه﴾ ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾.. انظروا بالحس البصير، والقلب اليقظ.. انظروا إليه في ازدهاره، وازدهائه، عند كمال

نضجه، انظروا إليه واستمتعوا بجماله . . لا يقول هنا، كلوا من ثمرة إذا أثمر، ولكن يقول: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع، كما أنه مجال تدبر في آيات الله، وبدائع صنعته في مجالي الحياة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . . فالإيمان هو الذي يفتح القلب، وينير البصيرة، وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة، ويصل الكائن الإنساني بالوجود، ويدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع . . وإلا فإن هناك قلوبًا مغلقة، وبصائر مطموسة، وفطرًا منتكسة، تمر بهذا الإبداع كله، وبهذه الآيات كلها، فلا تحس بها ولا تستجيب ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، وإنما يدرك هذه الآيات الذين يؤمنون».

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ـ رحم الله كاتبه ـ ما نصه: «﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ ومن طلع النخل قنوان دانية، والطلع: أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان، وقشره يسمى الكفرى، وما في داخله يسمى الإغريض لبياضه، والقنوان: العراجين، جمع قنو وهو العذق، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب، و﴿دَانِيَةٌ﴾ أي متدلية، أو قريبة من يد المتناول. ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ عطف على ﴿نَبَاتَ﴾، أي وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أي بعضه متشابه، وبعضه غير متشابه في الهيئة واللون والطعم وغير ذلك، مما يدل على كمال قدرة الصانع . . ﴿وَيَنْعِهِ﴾ أي وانظروا إلى حال نضجه وإدراكه نظر استدلال واستبصار، كيف يعود شيئا قويا بعد الضعف، جامعا لمنافع شتى. مصدر ينعت الثمرة كأينعت، تينع (بفتح النون وكسرها) ينعا وينوعا، إذا نضجت».

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيرًا ـ ما نصه: «ومن طلع النخل عراجين تخرجها محملة بالثمار سهلة التناول، وأخرجنا كذلك بالماء جنات من الأعناب والزيتون والرمان، ومنها ما هو متماثل الثمر في الشكل وغير متماثل في الطعم والرائحة ونوع الفائدة. انظروا في تدبر واعتبار إلى ثمره حين يثمر، وإلى نضجه كيف تم بعد أطوار مختلفة إن في ذلك لدلائل لقوم ينشدون الحق ويؤمنون به ويذعنون له».

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما نصه: «وفي آخر الآية الكريمة قوله

ـ تعالى ـ: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾، وفى هذه الإشارة سبق لعلم النبات الحديث فى ما وصل إليه من الاعتماد فى دراسته على مشاهدة الشكل الخارجى لأعضائه كافة فى أدواره المختلفة».

من الدلالات العلمية لهذا النص القرآنى الكريم

يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى محكم كتابه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

النصف الأول من هذه الآية القرآنية الكريمة تمت مناقشة دلالته العلمية فى الجزء الخامس من هذه السلسلة ولا حاجة لتكرار ذلك هنا، أما عن النصف الثانى من هذه الآية الكريمة الذى يشمل التسلسل فى استعراض الحبوب والثمار فإنه يشمل معظم النباتات التى يحتاجها الإنسان فى طعامه الأساسى، وتحتاجها أنعامه فى علفها.

فالحب المتراكب: يشمل القمح، والشعير، والذرة، والأرز، والشوفان، وغيرها من محاصيل الحبوب والغلال التى تمثل الطعام الأساسى لكل من الإنسان والحيوان. وهذه النباتات تجمع اليوم فى رتبة واحدة تعرف باسم «النجيليات»، وفى عائلة محددة منها تعرف باسم «العائلة النجيلية».

والنجيليات تضم أعشابًا حولية أو معمرة لها شكل مميز يطلق عليه الشكل النجيلى أى الذى يشبه النجيل، وإن ضمت قليلا من الشجيرات، وأزهارها تلقح بواسطة الرياح، وسيقانها غالبا أسطوانية، جوفاء، فيما عدا القليل منها مثل الذرة الذى يتميز بساق أصم.

ويضم القمح عددا من الأصناف المميزة منها البلدى، والهندى، والدكر، وكذلك يوجد من الشعير أصناف عديدة منها البلدى، والنبوى، والتونسى، ويوجد من الذرة البلدى، والبدرى، والسبعينى، والأمريكى، والصوانى، والسكرى، والمتبلور وغيرها، ومن الأرز يوجد حوالى ١٨ نوعا كلها من النباتات البرية، ومن نوع الأرز المزروع يوجد حوالى الألف صنف منها الأرز اليابانى،

والسلطانى، والشعير، والفينو، وغيرها. ويحل الأرز محل القمح فى كثير من الأقاليم الحارة، ويعتبر غذاء لا غنى عنه لأكثر من نصف سكان الأرض.

وينطوى فى **العائلة النجيلية** أكثر من(٤٥٠) جنس من أجناس النباتات النجيلية، وأكثر من(٤٥٠٠) نوع من أنواعها، وعشرات الآلاف من الأصناف، ولذلك تعتبر من أهم عائلات النبات من الوجهة الاقتصادية لاحتوائها على النباتات المنتجة لمحاصيل الغلال ذات الحبوب المتراكبة فى السنابل، وعلى غيرها من المحاصيل الاقتصادية مثل قصب السكر، والغاب، والأعشاب الطبية، وحشائش الرعى.

والحبوب المتراكبة فى العائلة النجيلية هى من ذوات الفلقة الواحدة، وكما خلق الله - تعالى - تلك الحبوب التى تمثل المحاصيل الأساسية لغذاء مختلف شعوب الأرض، خلق لنا حبوبا أخرى غير متراكبة ذات فلقتين توجد ثمارها فى قرون بدلا من السنابل ولذا توضع فى عائلة من عائلات النبات تعرف باسم **العائلة القرنية** تضم حوالى(٦٠٠) جنس، و(١٢ ألف نوع)، ومئات الآلاف من الأصناف، ومن أهم محاصيلها الفول، الحمص، العدس، الفاصوليا، اللوبيا، البازلاء، فول الصويا، الفول السودانى، الترمس، الحلبة، والبرسيم، وغيرها.

وتعتبر نباتات **العائلة القرنية** من أهم النباتات الاقتصادية كذلك، وذلك لغناء بذورها بالكربوهيدرات مثل النشا، والبروتينات مثل الزيوت والدهون النباتية.

وتلى رتبة النجيليات مباشرة فى تقسيمات النبات **رتبة النخيليات** التى تشمل عائلة واحدة هى **عائلة النخيليات**، وتضم أشجارا نخيلية، غير متفرعة - فيما عدا نخيل الدوم الذى تتفرع فيه النخلة إلى فرعين - . والنخيل أشجار دائمة الخضرة، لها سيقان أسطوانية الشكل، ذات سلميات طويلة، ومغطاة بقواعد الأوراق، ولها جذور ليفية. وتضم (**العائلة النخيلية**) أكثر من(٢٠٠) جنس، وما يزيد على(٤٠٠٠) نوع من أشجار النخيل وشجيراته، ويضم نخيل التمر وحده حوالى(١٥) نوعا وأكثر من ألف صنف، ولذلك جاء ذكر النخل فى القرآن الكريم عشرين مرة.

ومن نماذج **العائلة النخيلية**: نخيل التمر، نخيل جوز الهند، نخيل الزيت، ونخيل الخيزران، ونخيل الأريكا، والنخيل الملوكى، وأهمها على الإطلاق نخيل

التمر؛ لأن التمر يعد غذاء كاملاً تقريبًا للإنسان وذلك لاحتوائه على الكربوهيدرات، والسكريات، والنشا، والبروتينات، والدهون، والڤيتامينات وعلى العديد من الأملاح المعدنية المهمة.

ويلى ذلك فى تصنيف النباتات **رتبة العنابيات** وتضم عائلتين هما **العائلة العنابية** (وتضم ٤٥ جنسًا وأكثر من ٥٠٠ نوع ومن أمثلتها العناب، والنبق) **والعائلة العنبية** (وتضم ١١ جنسًا وما يزيد على ٦٠٠ نوع تنتشر انتشارًا واسعًا فى الأرض وأهمها العنب) وتتميز هذه العائلة بنباتاتها المتسلقة، وبراعمها الطرفية المحورة إلى محاليق، وجاء ذكر العنب والأعناب فى القرآن الكريم إحدى عشرة مرة لأهميتها الغذائية العالية.

ويلى ذلك فى تصنيف النباتات **رتبة الملتفات** وتشمل ست عائلات أهمها **العائلة الزيتونية** وتشمل ٢٢ جنسا وأكثر من ٥٠٠ نوع من الأشجار والشجيرات وبعض المتسلقات ومن أهم أشجار هذه الرتبة أشجار الزيتون، و هى أشجار معمرة تعيش الواحدة منها إلى أكثر من ألفى سنة، وقد ثبت علميًا أن زيت الزيتون يحتوى على أحماض دسمة غير مشبعة، وهى مفيدة فى الوقاية من العديد من الأمراض مثل جلطات الدم التى تتسبب فى حدوث أمراض الشرايين الإكليلية فى القلب، كذلك ثبت علميًا أن بزيت الزيتون أكثر من ألف مركب كيميائى منها ما يعدل الكولسترول فى أثناء استقلابه فى الجسم، ومنها ما ينقص مستوى الكولسترول الضار ويرفع مستوى الكولسترول المفيد، ويشكل زيت الزيتون حوالى ٥٠٪ إلى ٧٠٪ من تركيب الثمرة، ويتكون من الجليسيريدات والأحماض، بالإضافة إلى البروتينات، والدهون، ونسب متفاوتة من عناصر البوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنسيوم، والفوسفور، والحديد، والنحاس، والكبريت، وغيرها.

ويعطى تناول (١٠٠) جرام من الزيتون حوالى(١٠٣) من السعرات الحرارية؛ ولذلك امتدح خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كلا من الزيتون وزيته، فقال: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة» (أخرجه كل من ابن ماجه، وعبد الرزاق، والحاكم وغيرهم وورد فى صحيح الجامع الصغير)[١].

(١) ابن ماجه فى «سننه» (٣٣١٩)، وعبد الرزاق (١٩٥٦٨)، والحاكم فى «مستدركه» (٤/ ١٢٢).

ووصف ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ الزيتون بقوله: فى الزيتونة منافع، يسرج الزيت، وهو إدام، ودهان، ودباغ، ووقود يوقد بحطبه وتفله، وليس فيه شىء إلا وفيه منفعة، حتى الرماد يغسل به الإبريسم (وهو الحرير).

وقد أفردت شجرة الزيتون بالذكر فى القرآن الكريم سبع مرات لعظيم منافعها، ولقلة ما تحتاجه من رعاية وعناية من الزراع.

ويلى ذلك فى تصنيف النباتات رتبة تعرف باسم رتبة المرسينيات تشمل(٣٣) عائلة أهمها العائلة الرمانية التى تشمل أشجاراً صغيرة تضم جنساً واحداً هو الرمان وله نوعان هما «الرمان الأولى ـ ***Punica protoponica***»، و«الرمان الجرانيتى ـ ***Punica granatum***».

وقد جاء ذكر الرمان فى القرآن الكريم ثلاث مرات إشارة إلى أهميته فى غذاء الإنسان، منها مرتان فى سورة الأنعام، والثالثة فى سورة الرحمن.

وثمرة الرمان قد يصل قطرها إلى ١٨ سم، ويصل وزنها إلى ٦٠٠ جرام، وتحتوى على ٤٠٠ ـ ٥٠٠ بذرة، وتحاط البذرة بطبقة خارجية(الطبقة الخارجية من القصرة) وهى التى تؤكل لاحتوائها على عصير حلو المذاق يتركب من ٨٥٪ ماء مذابا فيه نسبة من السكريات، وكميات زهيدة من الدسم، والڤيتامينات من مثل ڤيتامين ج، والأحماض من مثل حمضى الليمون والبوريك، بالإضافة إلى آثار من عناصر متعددة منها: البوتاسيوم، الكلور، الكالسيوم، المغنسيوم، الفوسفور، الحديد، النحاس، والكبريت. وعصير الرمان له خواص هاضمة بالنسبة للدهون على وجه الخصوص، وقشر الرمان له خاصية قابضة، قاتلة لديدان الأمعاء، ومعينة على امتصاص الحديد وغيره من العناصر، وله قدرة هائلة على معالجة قروح الاضطجاع التى تحدث عند قعيدى الفراش.

وهكذا نرى أنه فى كلمات محددة جاء هذا التسلسل المعجز من الحب المتراكب إلى ثمار كل من النخل، والأعناب، والزيتون، والرمان، ليجمع كل أنواع الغذاء الأساسى للإنسان ولأنعامه؛ وذلك لأن باقى النباتات الراقية المعروفة لنا إما تنتج فاكهة وخضراوات من كماليات الطعام، أو هى من نباتات الزينة، أو الظل، أو

الأخشاب، أو الأعشاب وهى ــ على أهميتها ــ ليست من الضروريات الملحة لحياة الإنسان وأنعامه.

ويأتى الوصف القرآنى لتلك النباتات بالتعبير المعجز مشتبهًا وغير متشابه ليعبر عن حقيقة التنوع الهائل الذى وهبه الله ـ تعالى ـ لتلك النباتات بتطبيق قوانين الوراثة التى أودعها الله ـ تعالى ـ فى شيفرتها الوراثية بداخل الخلية الحية، مما مكن كل جنس من أجناسها من احتواء العديد من الأنواع، ويضم كل نوع من هذه الأنواع العديد من الأصناف؛ ويضم كل صنف من هذه الأصناف بلايين البلايين من الأفراد التى تكاثرت، ولا تزال تتكاثر، وسوف تظل كذلك إلى أن يشاء الله ـ تعالى ـ . ومع التكاثر تمايز قوانين الوراثة بين شجرة وأخرى، وعلى ذلك فإن أفراد كل نوع من أنواع النبات تبدو فى ظاهرها متشابهة، ولكن بدراستها المتخصصة يتضح ما بينها من الفروق مما يستوجب فصلها عن بعضها البعض، وهنا تتضح روعة التعبير القرآنى ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

ويأتى بعد ذلك تنبيه من الله الخالق بالنظر إلى ثمار النباتات وقت إثمارها وحين نضجها ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾، وفى هذا النص سبق علمى أصيل يشير إلى ضرورة الاعتماد على مشاهدة الشكل الخارجى لمختلف أجزاء النبات فى جميع أطوار نموه حتى يمكن التعرف عليه وتصنيفه، وهى من القواعد الأساسية اليوم فى علم تصنيف النبات، وفى النص أيضا إشارة إلى فضل الله العظيم فى إنتاج تلك الثمار وإلى أهميتها لحياة النبات نفسه، ولحياة كل من الإنسان والحيوان آكل العشب. وذلك لأن الثمرة الحقيقية هى مبيض الزهرة بعد تمام إخصابه بحبوب اللقاح، وتكون الجنين الذى يحاط بأغلفة نباتية من المواد الغذائية لحمايته قبل الإنبات، ولتغذيته فى مراحل الإنبات الأولى حتى تورق النبتة الأوراق الخضراء القادرة على القيام بعملية التمثيل الضوئى وإعداد الغذاء الخاص للنبات. وعلى ذلك فالثمار مهمة لجميع النباتات العليا لاحتوائها على البذور التى بها يمكن للنبات أن يستمر فى الوجود والتكاثر على الأرض إلى أن يشاء الله تعالى.

والثمار مهمة للإنسان لأنها تمثل غذاءه الرئيسى، وعلف أنعامه، كما تمثل مصدرًا أساسيًا من مصادر الزيوت والدهون، والدواء، والكساء ومواد الصباغة، وغيرها من الصناعات الأساسية فى حياة الناس.

وثمار النباتات من أجَلِّ نعم الله على الإنسان، وتحركها من بدء ظهورها على النبات إلى نضجها، وما يعتريها خلال تلك الفترة من نمو فى الحجم، واختلاف فى اللون، وتدرج فى الطعم والمذاق لمما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة على الخلق وعلى الإفناء والبعث، ولذلك ختمت الآية الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

هذا السبق القرآنى يعرض قدرًا من حقائق عالم النبات قبل أن يصل إليها العلم المكتسب بقرون متطاولة لمما يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذى أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذى قطعه على ذاته العلية، فى نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وحفظه حفظًا كاملاً على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وتعهد بذلك الحفظ إلى قيام الساعة ليكون للعالمين نذيرًا، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا على نعمة الإسلام، وعلى نعمة القرآن، وعلى بعثة هذا النبى العدنان، وعلى نعمة الثمار وغيرها من الأرزاق التى أفاض بها رب العالمين على جميع خلقه : المحسن منهم والمسىء، انتظارًا ليوم العرض الأكبر الذى يجازى فيه المحسن على إحسانه، ويعاقب فيه المسىء على إساءته ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *